وقف وتحبيس المخطوطات الطبية بالمغرب

ذ. محمد زين العابدين الحسيني

مؤرخ و خبير مخطوطات المغرب

يعتبر الوقف والتحبيس من الأعمال التي عمل المغاربة على القيام بها ابتغاء لفضل الله سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: «وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا»، وبادروا إلى تحصيل ثواب هذا العمل الإحساني قدر استطاعتهم، لأنه من الفضائل التي حض الإسلام عليها واعتبرها من الأعمال الصالحة التي تخلد ذكر الإنسان في الحياة، وتزيد من حسناته باستمرار حتى بعد وفاته. و" الوقف في اللغة: «وقف يقف وقوفاً جمع وقف ... ووقوف والأرض والدار: حبسها في سبيل الله، وهي موقوفة ... والوقف الصحي لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع الوقف، غير أن صرفه قاصر على الجانب الصحي» ، ومن ثمة فإن الغرض من التحبيس إعانة الطلاب على العلم، وهو ما تبينه هذه القطعة من مخطوط : حاشية عبد الرحمن بن محمد الفاسي على مختصر خليل ـ "باب الحبس"، عبد الرحمن بن امحمد بن يوسف (الصوة 1).

ومخطوط كتاب " أوقاف الناصحي " الذي يتضمن العديد من الفصول والأبواب الخاصة بشروط الوقف والتحبيس وألفاظه (الصورة 2).

على أن تناول موضوع الوقف والتحبيس في المجال الطبي قد لا تكفيه العديد من الصفحات باعتبار أن هناك أوقافا خاصة بالمدارس والمارستانات، وأخرى خاصة بدور النقاهة، وأخرى خاصة بإنتاج الأدوية...ولذلك فإنه سيتم الاقتصار على تحبيس ووقف المخطوطات الطبية، لما لذلك من دور في نشر العلم وتطويره. من خلال المحاور الرئيسية التالية:

- العناية بتحبيس المخطوطات وضمنها الطبية.
- مخطوطات محبسة في مجال الطب البشري.
- مخطوطات محبسة في مجالي البيطرة وطب الطيور.

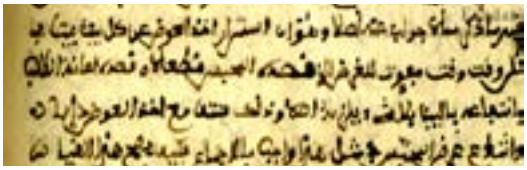

الصورة 1: حاشية عبد الرحمن بن محمد الفاسي على مختصر خليل ـ "باب الحبس ـ"، عبد الرحمن بن امحمد بن يوسف

الصورة 2 : أبو عبد الله محمد ابن الحسين الناصحي، كتاب " أوقاف الناصحي ".

العناية بتحبيس المخطوطات وضمنها الطبية:

إن عناية السلاطين المغاربة بالعلوم وضمنها الطب، كانت دافعا لهم للقيام بتحبيس العديد من الكتب والمخطوطات في هذا المجال، ومما يدل على ذلك قول صاحب كتاب المعجب:

"وبدأ من ذلك (أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن الكومي) بعلم الطب، فاستظهر

من الكتاب المعروف بالملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل... ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب".

وقول ابن مرزوق التلمساني: "وهذا ما يرشدك إلى قدر ما يحتاج إليه في كل مدرسة من هذه المدارس ، مع ما حَبَّسَه في جلها من الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة، فلا جرم كثر بسبب ذلك طلب العلم وعدد أهله، وثواب المعلم والمتعلم في ميزان حسناته". وشمل الأمر عهدي السعديين والعلويين فيما بعد.

وتضم الخزانات المغربية العديد من الكتب والمخطوطات المحبسة وضمنها الطبية، بهدف المحافظة عليها ونشر العلوم التي تتضمنها، ومن بين هذه الخزانات:

+خزانة القرويين؛ + خزانة ابن يوسف بمراكش، +خزانة الزاوية الحمزاوية العياشية؛ +الخزانة الناصرية بتمكروت؛ +خزانة المسجد الأعظم بتازة؛ +خزانة المسجد الأعظم بآسفي؛ +خزانة أوقاف مكناس؛ +خزانة المسجد الأعظم بسلا، +الخزانة الحسنية بالرباط، +المكتبة الوطنية بالرباط، وغيرها كثير...

إلى جانب إصدار ظهائر ورسائل سلطانية، من بينها هذه الرسالة من السلطان مولاي الحسن الأول في شأن تحبيس كتب مخطوطة على جامع المواسين وخزانة جامع ابن يوسف (الصورة 3).

الصورة 3

مخطوطات محبسة في مجال الطب البشري:

إن أهمية الطب تعد من عوامل العناية به (الوقف)، حيث يقول عنه داوود الأنطاكي صاحب كتاب : "كتاب مباحث الأذهان في إصلاح الأبدان" : " أما بعد، فإن الطب علم عظيم نفعه وقدره، وعلى شرفه وفخره، واشتهر ذكره وفضله، وثبت في الشرع أصله وفرعه، وشهد بصحته الكتاب والسنة ".

ويقول أبو القاسم الزهراوي بدوره عن هذه الأهمية: " ... الصناعة الشريفة التي هي أشرف الصنائع وأعلاها وأرفعها وأسناها بعد علم الدين والقرآن المبين، صناعة الطب التي لا يستغني عنها الملوك والكبراء، ولا السوقة والفقراء ".

ومن ثمة كانت العناية بالمخطوطات الطبية والقيام بوقفها وتحبيسها من أجل العلم خشية تعرضها للتلف أو الاندثار، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب، عن السلطان الموحدي محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن، حيث يقول : " وبدأ من ذلك (أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن الكومي) بعلم الطب فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل... ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب ".

ولم يقتصر تحبيس المخطوطات الطبية على عهد الموحدين، وإنما استمر مع المرينيين، ومن بين المخطوطات المحبسة في هذا المجال كمثال، مخطوط علي ابن عبد البر ابن هيدور، الذي عنونه ب "الدرة الحسناء في شرح قصيدة ابن سيناء"، الذي حبسه السلطان أبو سعيد ابن أبي الحسن المريني، وهو ما تبينه الصفحة التالية من المخطوط (الصورة 4).

كما استمر تحبيس المخطوطات الطبية مع السلاطين السعديين، حيث أن السلطان أحمد المنصور حبس العديد من المخطوطات، ومن بينها مخطوطة "المنظومة الرجزية في الطب العام" النادرة، لابن طفيل (الصورة 5).

الصورة 4 : مخطوط " الدرة الحسناء في شرح قصيدة ابن سيناء" لعلي ابن عبد البر ، ابن هيدور. من تحبيس السلطان أبي سعيد المريني.

الصورة 5 : الورقة المرفقة مع الصفحة الأولى من المخطوط وتتضمن ملخصا لأرجوزة ابن طفيل مع لفظ التحبيس من طرف أحمد المنصور.

كما حبس السلاطين العلويون العديد من المخطوطات من بينها مخطوط ضياء الدين أبومحمد عبد الله المالقي (ابن البيطار)، "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية" ، الذي حبسه السلطان مولاي الرشيد. وقد ورد في التحبيس بعد البسملة والتصلية :" حبس ملانا الإمام العلم الهمام كابل أمة النبي عليه السلام، الخليفة السعيد أبو المعالي

الصورة 6: الصفحة من مخطوط "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية" لضياء الدين أبومحمد عبد الله المالقي (ابن البيطار)، ، وبه وثيقة التحبيس من طرف السلطان مولاي الرشيد.

مولانا الرشيد جميع هذا الكتاب المسمى " بابن البيطار" المكتوب هذا على ظهر أول ورقة منه على الخزانة التي أنشأها بالمسجد الأعظم بالمدينة البيضاء لينظر فيه هناك، حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين..". وهو ما تبينه الصفحة الموالية من المخطوط (الصورة 6).

مخطوطات محبسة في مجالي البيطرة وطب الطيور:

- **تحبيس مخطوطات البيطرة والعناية بالدواب:**

لقد كان تدريس الطب البيطري بجامعة القرويين يتم في إطار منظومة متكاملة مع الطب البشري ووفق ضوابط وأسس علمية بالاعتماد على عدة مخطوطات حبسها السلاطين المغاربة أو بعض المحسنين، خصوصا وأن ابن البيطار كان يلح على اعتماد الجانب العلمي في البيطرة تجنبا لقتل الدواب، والعمل على العناية بها، وفي هذا الإطار يقول ابن أخي خزام : " يقتل البيطار ما لا يحصى من الدواب فلا يذكر ذلك فيه، وذلك لتهاون الناس بالدواب وقلة اكتراثهم بعللها. وكان يجب أن يمتحن البيطار أولا بعلم طبائع الدواب..."، وهو ما تبينه الصفحة التالية من المخطوط (الصورة 7):

كما أورد أبو بكر ابن البدر البيطار العديد من الشروط في هذا المجال، ومن بينها ضرورة

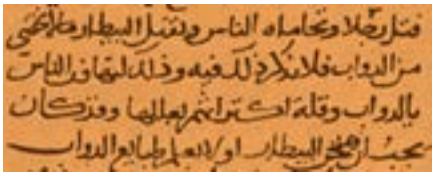

الصورة 7 : صفحة من مخطوط لابن أبي خزام محمد ابن يعقوب. "كتاب الفروسية وشيات الخيل" مكتبة تشستربيتي رقم (4161)دبلن ـ إيرلندا

ضبط وإتقان تعليم البياطرة، والإحسان إليهم بمكافأتهم، كي يهتموا بالحيوان المراد علاجه، وعدم الإساءة إليه. وقد خصص الباب الثاني من كتابه للوصايا الموجهة للبياطرة والزرادقة. وفي هذا الشأن يقول : " وأما الوصايا التي ذكرت عن البياطرة فأول وصية ذكرت منها أن يحسنوا تعلمهم ويحسنوا مكافأتهم ويشكرونهم على فعلهم وتعليمهم بالإحسان لهم والترحم عليهم، وأن يكونوا محافظين على صلواتهم فاعلين للخير في جميع أوقاتهم وإذا استشهد أحدهم في حديث حيوان شهد بالحق من غير مراباة ولا طلب دنيا. وإذا رأى صاحب حيوان فقيرا وصف له ما يصلح له من غير ان يأخذ منه شيئا ". .

ويعد كتاب "كتاب في البيطرة والعناية بالخيل"، من بين أهم الكتب المحبسة على جامعة القرويين باعتباره يتضمن العديد من الوصفات العلاجية، والأوضاع التشخيصية للأمراض التي تصيب الدواب وفي مقدمتها الخيل التي كانت تشكل وسيلة مهمة للنقل والركوب. حيث تم في الفصول الأولى التعريف بالعلل والأمراض التي تصيب الدواب سواء منها الخارجية أو الباطنية، وفي الفصول الموالية الوصفات العلاجية سواء منها الباطنية والخارجية بما في ذلك علاج الحواس مثل العين والأذن والأنف، وطب الأسنان (الصورة 8).

ويقدم "كتاب البيطرة". لأحمد ابن عتيق الأزدي، بدوره تشخيص علل الدواب وعلاجها. ويوضح ذلك بالعديد من الرسوم واللوحات ذات الأهمية (الصورة 9).

ومن بين المخطوطات الخاصة بالبيطرة

الصورة 8 : البيطارعبد الله ابن المنذر، كتاب الناصري، مخطوط. المعروف بكتاب كامل الصنعتين البيطرة والزردقة، وكاشف هم الويل في معرفة أمراض الخيل، لمؤلفه أبو بكربن البدر البيطار، مكتبة الأسكندرية، رقم 2042 ج.

الصور 9: أحمد ابن عتيق الأزدي، "كتاب البيطرة". يضم عدة لوحات، كما يتضمن تشخيص علل الدواب وعلاجها.

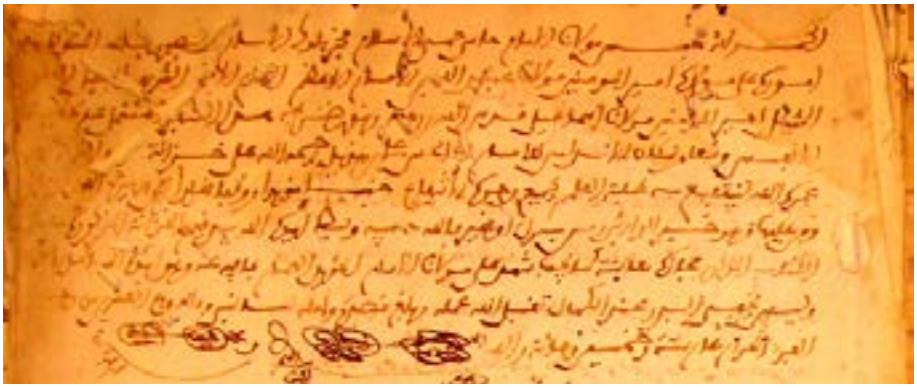

الصورة 10

والمحبسة على طلبة العلم بجامعة القرويين مخطوط "تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس"، لابن هذيل من طرف السلطان مولاي عبد الله .حيث تضمنت فقرة التحبيس ما يلي : "الحمد لله، حبس مولانا الإمام حامي حمى الإسلام، فخر ملوك الإسلام المنصور بالله، المتوكل في أموره على مولاه. أمير المومنين مولاي عبد الله ابن الإمام الأعظم الهمام الأفخم الشريف الجليل العلوي أمير المومنين مولانا إسماعيل قدس الله روحه ونور ضريحه، هذا السفر المشتمل على تحفة الأنفس وشعار الأنداس، للإمام أبي الحسن علي ابن هذيل رحمه الله على خزانة جامع القرويين عمره الله لينتفع به طلبة العلم بجميع وجوه الانتفاع، حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه وسيط ليده إليه يد قيم الخزانة المذكورة الكتاب المذكور مجازة معاينته كما يجب، شهد على مولانا الإمام المؤيد الهمام بما فيه عنه وهوأيده الله بأكمل، وليس يخفى البدر عند الكمال تقبل الله عمله وبلغ قصده وأمله". ويبدو من ذلك أن تحبيس المخطوطات من أجل العلم كان يتم بصيغة دقيقة ومحكمة بحيث لاتقبل أي تأويل أو تزوي ر(الصورة 10).

وإلى جانب هذه المخطوطات توجد مخطوطات أخرى محبسة من أجل تشجيع العلم سواء من طرف الخاصة أو السلاطين.

- **تحبيس مخطوطات علاج الطيور والعناية بها :**

إن العناية بالطيور كانت تتم إما بالنسبة لطيور خاصة بالقنص مثل الصقور وغيرها أو خاصة بالزينة داخل المنازل مثل الطاووس وغيره، وكان العديد منها يقدم كهدايا بين الملوك والأمراء والسلاطين عربونا على الصداقة، ومن ثمة كان التمييز بين العلاج والعناية، فالعلاج هو الموجه للتغلب على العلل التي تصيب الطيور، أما العناية فترتبط بما سيتناوله الطائر من أكل، ومتى سينام ومتى يستيقظ ومتى سيتم غسله ودرجة حرارة الماء، وغير ذلك مما ورد في العديد من المخطوطات. وقد أطلقت على

ذلك عدة مصطلحات مثل "البزدرة" أو "البيزرة" و"البرزقة"...ومن بين المخطوطات التي تضمنت ذلك مخطوط "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، للقزويني. و"كتاب الجوارح وعلوم البزدرة" لأبي بكر ابن محمد القاسمي القرشي .

ومن ثمة فإن تحبيس المخطوطات الطبية كان يعد من بين عوامل دعم طلبة العلم، باعتبار شمولية التحبيس والوقف للعديد من المجالات الصحية مثل المدارس والمارستانات ومراكز النقاهة وغيرها . وقد شمل التحبيس والوقف العديد من المخطوطات الخاصة بالطب البشري، كما شمل العديد من المخطوطات الخاصة بالبيطرة والزردقة، وطب الطيور والعناية بها. على أنه لايمكن الإلمام بكل جوانب الموضوع في هذه الصفحات، وإنما يمكن تناوله بشكل مستفيض ضمن كتاب خاص.

المراجع

1. الآية 20 سورة المزمل.
2. معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، ج5، ص800.
3. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب.ص 347.
4. ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن...ص ص406-407.
5. عبد الواحد المراكشي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب".ص 347.
6. البيطارعبد الله ابن المنذر، كتاب الناصري، مخطوط. المعروف بكتاب كامل الصنعتين البيطرة والزردقة، وكاشف هم الويل في معرفة أمراض الخيل، لمؤلفه أبو بكربن البدر البيطار، مكتبة الأسكندرية، رقم 2042 ج.